الصحافة واللغة قبل الاستقلال

الأستاذ زهير إحدادن

بسم الله الرحمان الرحيم

من المعروف أن الاستعمار الفرنسي حارب استعمال اللغة العربية في الجرائد بالوسائل المختلفة التي كانت تخولها له السلطات القائمة. وهذا الموضوع قد تناولته الدراسات الكثيرة من عدة جوانبه ولا فائدة لشرحه في هذه المقالة الموجزة.

وأنني أريد اليوم أن أتعرض لجانب من هذه الظاهرة التاريخية في علاقتها بالصحافة: كيف حارب الاستعمار الفرنسي استعمال اللغة العربية في الصحافة التي كانت تصدر بالجزائر؟.

وأننا نعلم أن اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة التي كانت تستعمل في الاتصال المكتوب في الجزائر قبل كارثة احتلال بلادنا من طرف فرنسا. فالعربية كانت منتشرة في التعليم في المساجد في التأليف والمراسلات...

ونحن نعلم أيضا أن الصحافة لم تكن موجودة في الجزائر قبل 1830 وأن الاستعمار والسلطات الاستعمارية هي التي نشرت هذه الوسيلة الجديدة في البلاد، فلا غرابة حينئذ إذا قلنا أن الصحافة بدأت تصدر في الجزائر باللغة الفرنسية ولم تستعمل اللغة العربية في الصحافة إلا بعد فترة من تواجد هذا الاستعمار.

ما هو التطور أو بالضبط ما هي المراحل التي مرت عليها الصحافة العربية قبل الاستقلال؟

في البداية أقول أنّ هذه المراحل قد تكون في نظري محتدة وهي أربعة وسأشرحها فيما يلي مرحلة بعد موحلة:

1-المرحلة الأولى

قد بدأت هذه المرحلة بصدور أول صحيفة باللغة العربية وهي صحيفة المبشر التي انشاتها السلطات الاستعمارية سنة 1848 وعينت على إدارتها الجنرال دوما. وقد ظهرت هذه الجريدة باللغة الفرنسية وباللغة العربية وكانت المقالات والأخبار بالعربية مترجمة من الفرنسية وكانت الترجمة ركيكة وبالتالي كانت عربية الجريدة ضعيفة ولكن تحسنت شيئا فشيئا حتى أصبحت لغة سليمة بالخصوص عندما طلبت الجريدة من بعض العلماء امثال البدوي الغيام برئاسة تحريرها.

ويتبادر إلى الذهن سؤال لماذا أصدرت السلطات الاستعمارية هذه الجريدة؟ أهو حب في اللغة العربية وفي خدمتها وترقيتها؟

الحقيقة أن ظهور هذه الجريدة جاء بعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر حيث بدأ يستتب نوعا ما للسلطات الاستعمارية الأمر في الجزائر ولكن وجدت نفسها معزولة عن الشعب الجزائري الذي لم يخف عداوته لها وعدم الاعتراف بها كما يشهد بذلك العديد من الانتفاضات والثورات التي وقعت في هذه الفترة، وقد شعرت السلطات الاستعمارية بهذه العزلة وبعدم جدوى الانتصارات العسكرية فبدأت تقوم ببعض المحاولات لربط علاقات بالمسلمين والاتصال بهم وكانت من بين الوسائل التي استعملتها إنشاء هذه الجريدة 'المبشر' وقد صرح بذلك العدد الأول منها حيث نكرت الافتتاحية ان " المسلمين في حاجة إلى من يخبرهم بما تقوم به السلطات في الجزائر..." .

فصدور هذه الجريدة يخدم بالدرجة الأولى الوجود الاستعماري في الجزائر وبما أن الشعب الجزائري في هذه الفترة لا يفهم اللغة الفرنسية فإن السلطات الاستعمارية قرّرت

الاتصال به باللغة التي يهمها وهي العربية، فصدرت إذا هذه الجريدة باللغة العربية.

وما يؤكد هذا كذلك هو أنّ السلطات الاستعمارية لم تسمح قطّ بإصدار صحيفة أخرى بالعربية وقد رفضت إعطاء رخصة الصدور لبعض الخواص (وهم يهود) رغم أنهم كانوا يتعاملون معها.

وقد مرت فترة من الزمان وليس في الجزائر الا جريدة واحدة باللغة العربية وهي المبشر، وفي سنة 1876 ثم في سنة 1882 قامت السلطات الفرنسية بإصدار جريدتين أخريين بالعربية ولكن في باريس وإن كان توزيعهما يشمل الجزائر. وفي سنة 1898 سمحت السلطات الاستعمارية بإصدار جريدة أخرى موالية لها وباللغة العربية العامية.

وهكذا تمر هذه المرحلة وهي تغطى القرن التاسع عشر حتى نهايته بسيطرة جريدة المبشر في الميدان وهي جريدة استعمارية تخبر المسلمين الجزائريين وخاصة اللذين كانوا يتعاملون مع السلطات الاستعمارية بالنشاط الاستعماري بالإضافة إلى بعض المقالات الأدبية والتاريخية والفلسفية.

2- المرحلة الثانية:

وهي تشمل بداية القرن العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وتمتاز بتغيير نوعي في موقف السلطات الفرنسية نحو اللغة العربية بصفة عامة واتجاه الصحافة باللغة العربية بصفة خاصة.

حيث أصبحت هذه السلطات تسمح للخواص بإصدار صحف بالعربية وتشجعهم على ذلك وتحيطهم بنوع من العناية رغم وجود مراقبة مستترة، وبذلك. عرفت هذه الفترة نشاطا مكثفا نوعا ما للصحافة باللغة العربية بجانب الصحافة وباللغة الفرنسية فظهرت في هذه الفترة حوالي ست صحف بالعربية زيادة على جريدة المبشر ومن هذه الصحف ما هو موال للسلطات مثل "المغرب" أو "كوكب إفريقي' التي كان يصدرها محمود كحول ومنها ما هو

مستقل عن السلطات بدون معارضتها مثل جريدة "الفاروق' لعمر بن قدور الجزائري أو "ذو الفقار" لعمر راسم.

وظهرت كذلك في هذه المرحلة بعض الصحف مزدوجة اللغة يعني الفرنسية والعربية مثل جريدة "الأخبار" و "الحق" الوهرانية وهما تابعتان لخواص فرنسيين.

وكانت هذه الصحف تصدر بلغة عربية سليمة تتضمن زيادة على الأخبار، مقالات مطولة في الأدب والتاريخ والفلسفة والدين وكذلك قصائد شعرية وروايات قصيرة، فعرفت اللغة العربية حينئذ نوعا من الرواج جعلتها تسترجع نوعا ما المكانة التي ضيعتها في المرحلة السابقة.

وكل هذا يبدو غريبا، والحقيقة أنه طرأ على السياسة الفرنسية في هذه الفترة تغيير نوعي جعل التيار الليبرالي اليساري يتغلّب على الحكم في فدنسا، في البرلمان وفي الحكومة، فبرز وزراء وحكام يدعون إلى تطبيق سياسة التقارب و المحبة مع المسلمين في الجزائر والاعتراف بمميزاتهم الخاصة في الدين واللغة، وكان الوالي العام جونار ينتمي إلى هذا التيار وهو الذي كان يساند جريدة "الأخبار" ويمد لها يد المعاونة.

وكانت هذه السياسة ترمي كذلك إلى أن تجعل فرنسا تستطيع أن تلعب دورا هاما في العالم الإسلامي وبالأخص في المشرق العربي، وكانت سياستها في الجزائر مبررا لها وبرهانا على أنها تدافع عن المسلمين وبذلك استطاعت أن تتوغل في العالم الإسلامي.

زيادة على هذا فإن فرنسا كانت في صراع كبير مع ألمانيا بالنسبة للمغرب الأقصى وبالنسبة لحدودها الشرقية مع ألمانيا فأخذت تستعد للحرب وتشعر باحتياجها الكبير بتكوين جيش عظيم وذلك ما جعلها تفكر في تجنيد المسلمين الجزائريين مما جعلها تقترب منهم وتسمح لهم بنوع من الحرية في نشاطهم اللغوي والديني.

فالنشاط الصحفي في هذه المرحلة، كما وصفناه، كان يخدم في الدرجة الأولى المصلحة الفرنسية التي اقترنت في هذه الفترة بمصلحة بعض المسلمين الجزائريين واستفادت اللغة العربية من ذلك.

3-المرحلة الثالثة:

وهي التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولى واستمرت حتى بداية الحرب العالمية الثانية وقد تعينت—خلافا للمرحلة الثانية-بصراع كبير بين السلطات الاستعمارية والصحافة باللغة العربية.

إذ أصبحت هذه السلطات عدوة للصحافة العربية تحاربها وتقهرها بعد أن كانت تكتنفها وتحميها.

وهذا التحول ناتج عن سبب أساسي وهو أن الصحافة الجزائرية – بالعربية وبالفرنسية — بلغت نضجا كبيرا في هذه المرحلة وأصبحت أداة فعالة وسلاحا سياسيا قويا عرف الجزائريون كيف يستعملونه لتحقيق مطالبهم.

والسبب الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول وهو مكمل له أن المقاومة الجزائرية أصبحت بالدرجة الأولى سياسية بعد أن خرج الشعب الجزائري من الصمت الذي التزمه منذ نهاية مقاومة الأمير عبد القادر فبدأت تظهر الجمعيات وتتكون حركات تشبه أحزابا سياسية وأصبحت الصحافة منبرا عاليا للتعبير والإفصاح عما يختلج في النفوس واتخذت نخبة من المثقفين الصحافة كأداة ووسيلة تساعدها على تحقيق أهدافها.

ولهذا أصبحت السلطات الاستعمارية تخاف من الصحافة لأنها تهدد كيانها وتكشف عيوبها وتنبّه وترشد الشعب الجزائري فأخذت تقمعها وتعرقل تطورها سواء كانت هذه الصحافة تنطق بالعربية أو بالفرنسية.

غير أن الأمد استصعب عليها فيما يخص الصحافة باللغة الفرنسية فلم تستطع أن تحيدها عن طريقها، ولكن بالنسبة للصحافة باللغة العربية فكان الأمر عليها سهلا، فهدّدت، أولا أصحاب الصحف ووضعتهم في السجن ثم عرقلت توزيع هذه الصحف ثم اعتدت على ممتلكات هذه الصحف فحطمتها، وكلّ ذلك سعيا منها لإرغام الجريدة على التوقف طوعا وذلك ما وقع في سنة 1921 مع جريدة "الصديق" للشيخ المولود الأزهري.

ولكن هذا الضغط الاستعماري لم يمنع الصحافة العربية من مواصلة نشاطها، فظهرت عدة صحف في هذه الفترة مما أرغم السلطات الاستعمارية على الكشف عن موقفها علانية فصرحت أنها تعتبر الصحافة باللغة العربية صحافة أجنبية وتطبيقا لقانون حرية الصحافة لسنة 1881 فإن هذه الصحافة لا تتمتع بالحرية الكاملة بل هي تخضع للسلطات الإدارية ويستطيع وزير الداخلية أن يمنع أبه صحيفة تصدر بالعربية من الظهور بدون اعطاء أي مبرر.

وهذا ما وقع لجريدة "المنقذ" التي أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس فمنعها وزير الداخلية الفرنسية من الصدور وحجز العدد الثامن عشر داخل المطبعة وتوقفت عن الصدور ثم عوضها الشيخ بن باديس بجريدة أخرى تحمل اسم "الشهاب" وكلّ هذا وقع سنة 1925 وكان أول منع يصدر من وزير الداخلية.

وهكذا تصبح الصحافة العربية أجنبية في بلادها وتحيد عن طريقها الطبيعي، فأصبحت تتحاشى الحديث السياسي حتى لا تقع ضحية لهذا القانون الذي يسمى "قانون حرية الصحافة" ولكي تواصل نشاطها أصبحت تأخذ طابعا ثقافيا أو أدبيا أو دينيا، وبذلك استمرت في الظهور وهو ما نلمسه في الصحف التي كان يصدرها أبو اليقظان مثلا أو التي كانت تصدرها جمعية العلماء أو التي كان يشرف عليها الطرقيون.

المرحلة الرابعة:

وهي التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية واستمرت حتى اندلاع الثورة المباركة وتتميز بتطور كبير وقع في العالم وفي الجزائر ففي العالم تغيرت الخريطة السياسية وظهرت دولتان كبيرتان: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، في حين ضعف دور فرنسا ضعفا كبيرا إذ خرجت من هذه الحرب هزيلة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

أما في الجزائر فإن التحول الكبير قد وقع أثناء الحرب في سنة 1943 عندما توحدت جميع القرى السياسية في البلاد وكونت حركة "أحباب البيان والحرية" التي سطرت في مطالبها استرجاع السيادة الوطنية والدفاع عن اللغة العربية والاعتراف بها.

وهما مطلبان يؤمن بهما لأول مرة الجميع وبذلك أصبحت السلطات الاستعمارية تأخذهما بالاعتبار وإن كانت تتنكر لهما رسميا، غير أنها بدأت تغير موقفها من اللغة العربية وتمنح للصحافة باللغة العربية أكثر حرية.

هذا التطور جعل الصحافة باللغة العربية تنشط مثل الصحافة باللغة الفرنسية وتسترجع مكانتها في الميدان السياسي خصوصا وأن الأحزاب السياسية مثل حزب البيان وحركة انتصار للحريات الديمقراطية والحزب الشيوعي بدأت تصدر صحفا باللغة العربية وتتناول الأحداث السياسية وتعلق عليها وتنتقد وتؤد موقف الحزب الذي تنتمي إليه، بالإضافة إلى الصحافة الثقافية والدينية التي كانت تنشط في المرحلة السابقة مثل:

"البصائر" لجمعية العلماء أو لسان الدين والبلاغ الجزائري. التابعين للجمعيات الطرقية الصوفية.

ففي هذه المرحلة وإن كانت قصيرة إذ لا تشمل إلا تسع سنوات عرفت اللغة العربية انبعاثا كبيرا تجسّد في ميدان التعليم وهو النشاط الذي كانت تقوم به الأحزاب السياسية

وجمعية العلماء مما جعل عدد الغراء بالعربية يزداد ويكثر ويعطي للصحافة بالعربية رواجا لم تعرفه من قبل.

ولكن، وغم هذا التطور –فإن كفة اللغة العربية كانت ضعيفة وهزيلة بالمقارنة مع النشاط الصحفي باللغة الفرنسية الذي تمكن من التغلغل إلى جميع الأوساط الجزائرية فأصبحت اللغة الفرنسية تسود في جميع الميادين.

وهكذا فإن السياسة الفرنسية عملت بمنهجية دقيقة على محاربة اللغة العربية في الجزائر وتمكنت من جعلها غريبة وأجنبية بين أهلها–رغم المقاومة العنيفة والذكية التي واجه بها الشعب الجزائري هذه الحرب الهوجاء.